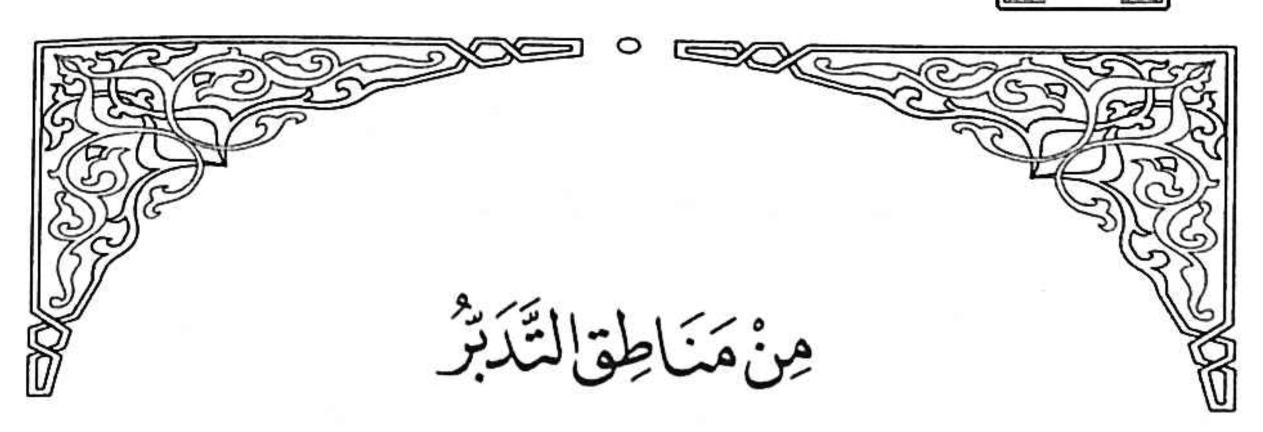


من مناطق التدبر

كثير من الناس يتساءل ويقول: **ماذا أتدبر بالضبط في القرآن؟** والحقيقة أن القرآن فيه حقائق وإشارات كثيرة تحتاج إلى التدبر، ثمة مفاتيح كثيرة لفهم القرآن.

أعظم وجوه ومفاتيح الانتفاع بالقرآن تدبر ما عرضه القرآن من حقائق العلم بالله، فما في القرآن من تصورات عن الملأ الأعلى هي من أعظم ما يزكي النفوس، وكثيراً من المنتسبين للفكر المعاصر يظن الأهم في القرآن هو التشريعات العملية، وأما باب العلم الإلهي فهو قضية ثانوية، ولا يعرف أن هذا هو المقصود الأجل والأعظم، ولذلك قال الإمام ابن تيمية: «**فَإِنَّ الخِطَابَ العِلْمِيَ فِي القُرْآنِ أَشْرَفُ مِنَ الخِطَابِ العَمَلِيَ قَدْرَاً وَصِفَةً**»[1].

وأنا شخصيّاً إذا التقيت بشخصية غربية متميزة في

(١) درء التعارض: ٣٥٨/٥.

الفكر أو القانون أو غيرها من العلوم أجاهد نفسي مجاهدة على احترام تميزه؛ لأنني كلما رأيتهم في غاية الجهل بالله سبحانه وتعالى، امتلأت نفسي إزراءً بهم، ما فائدة أن تعرف تفاصيل جزء معين من العلوم وأنت جاهل بأعظم مطلوب للإنسان، إنه لا يختلف عن سائق مركبة يتقن تفاصيل بعض الطرق الفرعية ويجهل الطرق الرئيسية في المدينة، فهل مثل هذا يصل؟! أي تخلف وانحطاط معرفي يعيشه هؤلاء الجهلة بالعلم الإلٰهي.

ويؤلمني القول بأن كثيراً من المنتسبين للفكر العربي المعاصر يجهلون دقائق العلم بالله التي عرضها القرآن، وأما أئمة السلف الذين ورثنا عنهم علوم الشريعة فقد كانوا في ذروة التبحر في دقائق القرآن، فمن تأمل ـ مثلاً ـ رسالة الإمام أحمد في الرد على الزنادقة، أو رسالة الدارمي في النقض على المَرِيسِيِّ، فستستحوذ عليه الدهشة من عمق علمهم بالقرآن وما فيه من أسرار المعرفة الإلٰهية، وشدة استحضار الآيات وربط ما بينها، ليست معرفة آحاد وأفراد الألفاظ فقط، بل معرفة السلف بالقرآن مركبة، فتجدهم يلاحظون منظومة لوازم معاني القرآن، ويستخلصون في تقريراتهم حصيلة توازنات هذه المعاني القرآنية.

ومن وجوه الانتفاع بالقرآن ـ أيضاً ـ تدبر أخبار الأنبياء التي ساقها القرآن وكررها في مواضع متعددة، وبدهي أن هذه الأخبار عن الأنبياء ليست قصصاً للتسلية، بل هي نماذج يريد القرآن أن يوصل من خلالها رسائل تضمينية، فيتدبر قارئ القرآن ماذا أراد الله بهذه الأخبار؟ مثل التفطن لعبودية الأنبياء وطريقتهم في التعامل مع الله كما قال الإمام ابن تيمية: «**وَالقُرْآنُ قَد أَخْبَرَ بِأَدْعِيَةِ الأَنْبِيَاء، وَتَوُبَاتِهِم، وَاسْتِغْفَارِهِم**»[(١)].

وتلاحظ أن الله يثنّي ويعيد قصص القرآن في مواطن متفرقة، وليس هذا تكراراً محضاً، بل في كل موضع يريد الله تعالى أن يوصل رسالةً ما، وأحياناً أخرى يكون في كل موضع إشارة لجزء من الأحداث لا يذكره الموضع الآخر، كما قال الإمام ابن تيمية مثلاً: «**وَقَد ذَكَرَ الله قِصَّتَهم** ـ أي: قوم لوط ـ **فِي مَوَاضِعَ مِنَ القُرْان فِي سُوْرَة هُوْدٍ وَالحِجْر والعَنْكَبُوتِ، وفِي كُلِ مَوْضِعٍ يَذْكُر نَوْعَاً مِمَّا جَرَى**»[(٢)].

---

(١) تلخيص الاستغاثة: ١/ ١٦١.

(٢) الرد على المنطقيين: ص٤٩٤.

والمهم هاهنا أن تدبر أخبار الأنبياء، وأخبار الطغاة، وأخبار الصالحين، في القرآن، ومحاولة تفهم وتحليل الرسالة الضمنية فيها؛ من أعظم مفاتيح الانتفاع بالقرآن.

ومن أعظم وجوه الانتفاع بالقرآن ـ أيضاً ـ أن يضع الإنسان أمامه على طاولة التدبر كل الخطابات الفكرية المعاصرة عن النهضة والحضارة والتقدم والرقي والإصلاح والاستنارة. . . إلخ، ويضع كل القضايا التي يرون أنها هي معيار التقدم والرقي، ثم يتدبر قارئ القرآن أعمال الإيمان التي عرضها القرآن كمعيار للتقدم والرقي، تأمل فقط بالله عليك كيف ذكر الله الانقياد والتوكل واليقين والإخلاص والاستغفار والتسبيح والصبر والصدق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . . إلخ، في عشرات المواضع، بل بعض هذه الأعمال بعينها ذكرت في سبعين موضعاً، ثم قارن حضور هذه القضايا في الخطابات الفكرية لتجده حضوراً شاحباً خجولاً؛ أيُّ إفلاس فكري أن تكون الأعمال التي يحبها الله ويثنيّ بها ويجعلها مقياس الرقي والتقدم والتنوير هي في ذيل القائمة لدى الخطابات الفكرية المعاصرة المخالفة لأهل السنة، يا خيبة الأعمار.

حين يتدبر قارئ القرآن كيف وصف الله القرآن بأنه هدى وبينات ونور فإنه يستنتج من ذلك مباشرة بأن مراد الله من عباده في القرآن ليس لغزاً، هل يمكن أن يكون الله تعالى يعظم ويمنح الأولوية لتلك القضايا التي ترددها الخطابات الفكرية ثم يكرر في القرآن غير ذلك؟! هل القرآن يضلل الناس عن مراد الله؟! شرّف الله القرآن عن ذلك، ولذلك كان الإمام ابن تيمية يقول: «**وَمَا قَصَدَ بِهِ هُدًى عَامّاً كَالْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ بَيَاناً لِلنَّاسِ يَذْكُرُ فِيهِ مِنْ الْأَدِلَّةِ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ عَامَّةً**»[١]، وهذا لا يعني أن الأئمة الربانيين لا يختصهم الله بمزيد فهم للقرآن، وتتكشف لهم دلالات وأسرار لا تنكشف لغيرهم من الناس، فالقلب المعمور بالتقوى يبصر ما لا يبصره من أغطشت عينه النزوات، نسأل الله أن يسبل علينا ستر عفوه، وقد أشار الإمام ابن تيمية لذلك في مواضع كثيرة من كتبه، كقوله: «**وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ فِي تَفَاصِيل آيَاتِ الْقُرْآنِ مِنَ الْعِلْمِ والإِيْمَانِ مَا يَتَفَاضَلُ النَّاسُ فِيْهِ تَفَاضُلاً لا يَنْضَبِط لنَا، والقُرْآن الَّذِي يَقْرَأُهُ النَّاسُ بِاللَّيْلِ والنَّهَار يَتَفَاضَلُوْنَ فِي**

(١) الفتاوى: ٩/٢١١.

فَهْمِهِ تَفَاضُلاً عَظِيْمَاً، وَقَد رَفَعَ الله بَعْضَ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ دَرَجَات»[١].

ومن أعظم مفاتيح الانتفاع بالقرآن - أيضاً - أن يستحضر متدبر القرآن أن جمهور قرارات القرآن وأحكامه على الأعيان والأشياء إنما هي أمثال، ومعنى كونها أمثال؛ أي: «يعتبر بها ما كان من جنسها» بمعنى أن القرآن يقدم في الأصل نماذج لا خصوصيات أعيان، وقد أشار القرآن لذلك كثيراً كقوله تعالى في سورة الحشر ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١]، وقوله في سورة الروم ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨]، فماذا يريد الله في مطاوي هذه الأمثلة القرآنية؟ هذا أفق واسع للتدبر.

لا شك أن تنبيهات القرآن على مركزية تدبر القرآن في صحة المنهج والطريق أنها دافع عظيم للتدبر، لكن ثمة أمراً آخر على الوجه المقابل لهذه القضية، ومعنى منذ أن يتأمله الإنسان يرتفع لديه منسوب القلق قطعاً، وهو أن من أعرض عن تدبر القرآن فإن الله قدر عليه أصلاً ذلك

---

(١) درء التعارض: ٧/ ٤٢٧.

الانصراف لأن الله تعالى سبق في علمه أن هذا الإنسان لا خير فيه، ولو كان في هذا المعرض خير لوفقه الله للتدبر والانتفاع بالقرآن، وقد شرح القرآن هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣]، كلما رأى الإنسان نفسه معرضاً عن تدبر القرآن، أو معرضاً عن بعض معاني القرآن، ثم تذكر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ﴾ يجف ريقه من الهلع لا محالة.

على أية حال.. هذا القرآن ينبوع يتنافس الناس في الارتشاف منه بقدر منازلهم، كما قال الإمام ابن تيمية: **«وَالْقُرْآنُ مَوْرِدٌ يَرِدُهُ الخَلقُ كُلهُم، وَكُلٌ يَنالُ مِنْهُ عَلَى مِقْدَارِ مَا قَسَمَ الله لَهُ»**(١).



(١) درء التعارض: ٧/ ٤٢٧.